"الدّولة الهجينة: أو حين تنوء الدّولة القطريّة بتاريخها"

د. علي الصّالح مولى

"The Hybrid State: Or When The Nation-State Or Is Burdened By Its History"

Dr. Ali Al-Saleh Moula

د. عمر السّاسي

جامعة قفصة

تونس

essassi2001@gmail.com

"الدّولة الهجينة: أو حين تنوء الدّولة القطريّة بتاريخها "

د. علي الصّالح مولى

د. عمر السّاسي

ملخص:

اشتغل المؤلّف علي الصّالح مولى في هذا الكتاب على مسارات "الدّولة الهجينة" قصد الوقوف على المعقوليّة التي جعلت هذا النّموذج للدولة ينشأ في المنطقة العربيّة ويستمرّ رغم أزمته التي تعود خاصّة إلى أسبقيّة وجود الدّولة على وجود الأمّة، ورغم وجود بدائل أخرى لها معقوليتها. فبحث في حدود التّحديث السّياسي عند روّاد النّهضة والإصلاح العرب مقارنة بإسهامات الفلاسفة والمفكّرين في أوروبا في تحديث الدّولة. وكشف المؤلّف حيثيّات انتهاء الزمن الإمبراطوريّ العثمانيّ وما نتج عنه من بدائل كالدّولة القومية في تركيا وقد نشأت في صراع مع أطروحة دولة الخلافة والدّولة القطريّة العربيّة التي أخذت في التشكّل تدريجيّا على حساب دولة الوحدة إمكانا بديلا أسهمت عوامل مختلفة في استبعاده... ودرس المؤلّف السّياقات التّاريخيّة والجغرافيّة السّياسيّة التي أسهمت في تكوّن الدّولة القطريّة حتّى ارتبط استمرارها بمصالح الاستعمار القديم الجديد، فتكرّست، على علّاتها، أمرا واقعا وقد لا يكون البديل عنها إلّا مزيدا من التّجزئة على أسس طائفيّة وهوويّة أوّليّة.

الكلمات المفاتيح: الدّولة، المعقوليّة، الإصلاح، النّهضة، التّحديث، الخلافة، القوميّة، الهويّة، أوروبا.

ABSTRACT:

In this book, the author, **Ali Al-Saleh Moula**, explores the trajectories of the "hybrid state" to understand the logic behind the emergence and persistence of this model in the Arab region, despite its inherent crisis, stemming primarily from the primacy of the state over the nation, and despite the existence of other, equally plausible, alternatives. He examines the limits of political modernization among the pioneers of the Arab Renaissance and reform movements, comparing them with the contributions of European philosophers and thinkers to the modernization of the state. The author reveals the circumstances surrounding the end of the Ottoman imperial era and the ensuing alternatives, such as the nation-state that emerged in Turkey in conflict with the thesis of the Caliphate State, as well as the Arab nation-state, which gradually took shape at the expense of the unified State, a potential alternative whose exclusion was driven by various factors. The author studied the historical and geopolitical contexts that contributed to the formation of the nation-state whose survival eventually became intertwined with the interests of old and new colonial powers, thus, entrenching it, despite its flaws, as an ineluctable reality. The alternative to it, the latter suggests, may be nothing but further fragmentation along sectarian and primordial identity grounds.

Key words: The state, Rationality, Reform, Renaissance, Modernization, Caliphate, Nationalism, Identity, Europe.

"ما من أمّة قعدت بها ثقافتها عن تدشين مجالها السّياسيّ إلّا تعذّرعليها موضوعيّا أن تدخل الزّمن السّياسيّ الحداثيّ أوّلا وأن تقيم فيه دولة معاصرة ثانيا"

(المؤلّف)

1- مقدمة:

صدر للدكتور علي الصّالح مولى أستاذ الحضارة بالجامعة التّونسيّة والباحث المهتمّ بالفكر العربيّ الحديث والمعاصر ومفاهيمه وأطروحاته وأسئلته وقضاياه، مؤلّف جديد في موضوع الدّولة بعنوان "**الدّولة الهجينة : أو حين تنوء الدّولة القطرية بتاريخها**"، وهو الكتاب الثّاني، فقد صدر له مؤلّف سابق بعنوان "**الدّولة الوطنيّة وسؤال الشّرعيّة : بحث في عوائق الاستخلاف و آفاق الاختراق**"، وله كذلك مقال بعنوان "**من الدّولة الوطنيّة" مشروعًا إلى "الدّولة القطريّة" و اقعًا : بحث في مسارات تشكّل الدّولة الهجينة**"، وهكذا يبدو اهتمام الباحث ملحوظا بالدّولة ومتعلّقاتها بمسميّاتها المختلفة "الوطنيّة" أو "القطريّة" أو "القوميّة" أو "الهجينة" في أبعادها النّظريّة والواقعيّة الاجتماعيّة والتّاريخيّة...

اشتغل المؤلّف في الإصدار الجديد، وهو كتاب كبير الحجم (430 صفحة) بدراسة أزمة الدّولة القطريّة باعتبارها دولة الأمر الواقع رغم تعارضها مع المعقول التّاريخي. والعنوان "الدّولة الهجينة "، لا شكّ لافت، يثير أسئلة قبليّة مختلفة عن التّركيب النعتيّ ودلالاته وخلفيّاته خصوصا أنّ عناوين سابقة لمؤلفات عن الدولة وردت في صيغ تركيبية مشابهة مثل "الدّولة المستحيلة" (وائل حلّاق) و "الدّولة العالقة" (محمّد حدّاد) و "الدّولة الفاشلة" و "الدّولة المارقة" (تشومسكي)...

وقد أعلن المؤلّف أنّه اعتمد جملة من الخيارات المنهجيّة والمعرفيّة المتداخلة التي يمكن من خلالها اختبار مداخل نظريّة متعدّدة في التعامل مع الموضوع لتتعاضد مع "المقاربة بالسّياقات" (Contextuel Approach) التي يُشتغل وفقها على المفاهيم والمتصوّرات والبدائل النّظريّة في علاقاتها القائمة أو الممكنة بسياقاتها وشروطها الثّقافيّة والتّاريخيّة والاجتماعيّة، وقد رآها مناسبة لدراسة "مسارات تشكّل الدّولة المعاصرة" بـ"إخضاعها لعمليّات تشريح وتفكيك ومساءلة " قصد الوقوف على أزمة الدّولة الهجينة التي تختصر في "أنّها منتوج سياسيّ وثقافيّ ودستوريّ لم يخلص كلّ الإخلاص لمقتضيات تكوّن الدّولة القوميّة الحديثة ولم ينفصل كلّ الانفصال عن روح نظريّة الاستخلاف"، انطلاقا من إشكاليّة عامّة يمكن أن يكون مدارها السّؤال : أيّ "معقوليّة قادت "التمرّد" على أطروحة "دولة الخلافة" فلسفةً وتجربةً تاريخيّة، وعلى "الدّولة القوميّة" إمكانًا مرتقبًا واستقدمت أطروحة الدّولة الوطنيّة-القطريّة بديلا مؤسّسيّا ورهانا تمدينيّا؟"

ولئن اشتغل المؤلّف على الموضوع وفق ثلاثة أبواب وعشرة فصول فإنّ موادّ الكتاب يمكن توزيعها بأسلوب مبسّط على ثلاثة محاور اهتمام كبرى:

2- المحور الأوّل: تمثّلات التّحديث السّياسي وحدوده عند روّاد النّهضة والإصلاح:

يمكن في هذا المبحث الجمع بين دراسة المؤلّف للدّولة ومتعلّقاتها في سياقها التّاريخيّ والثّقافيّ الغربيّ من جهة وإسهامات رواد النّهضة والإصلاح العرب في المجال السّياسيّ متأثّرين بالتّجارب الغربيّة ومحاولين الإفادة من استجلاب ما أمكنهم استجلابه إلى الشّرق...

أتى المؤلّف على أهمّ الإسهامات التّأسيسيّة لفلاسفة الغرب ومفكريه القدماء والمحدثين ممّا يحسب للتّجربة الحضاريّة الأوروبيّة في مجال الدّولة بمعناها المعاصر ومتعلقاتها كالسّلطة والشّرعيّة والقيم السّياسيّة عموما، مثل : توماس هوبز (ت 1679) في تشبيهه الدّولة في عنوان كتاب له بالتنّين البحري أو الوحش الضّخم (Léviathan)، وجون لوك (1704) في دعوته إلى التّسامح في مواجهة ثقافة الخوف والتعصّب ومونتسكيو (1755) في دعوته إلى الفصل بين السّلطات الثّلاث وفولتير (1778) في دعوته إلى التّسامح وجون جاك روسو (1787) في نظريّة العقد الاجتماعي ...

ولئن كانت لهؤلاء جميعا وغيرهم إضافات نوعيّة معلومة في المجال السّياسيّ وصيرورة الدّولة في الغرب وقد فصّل المؤلّف فيها القول، فإنّه يستخلص أنّ أهم ما أنتجته الحداثة الغربيّة هو نزع القداسة عن السّياسة والتّعامل مع المجال السّياسيّ باعتباره حقلا مستقلّا بنفسه ذا مشروعيّة ذاتيّة "الحقل السّياسيّ"champs politique (برتراند بادي).

ووقف المؤلّف وفق تمثّل مقارن على حدود المفاهيم والأطروحات والرّهانات الإصلاحيّة والنّهضويّة، وعمل على رصد العوامل والعلل التي مهّدت لاحقا لتشكّل صيرورة الأزمة التي انتهت بظهور " الدّولة الهجينة"... فلقد أدرك روّاد النّهضة والإصلاح العرب مبكّرا أنّ "الانقلاب في العلاقة بين المسلمين وأوربّا وانحطاطهم وتفوّقها" بعبارة علي أومليل، أو "التأخّر التّاريخي" بعبارة عبد الله العروي، أو "جدل اللّاتكافؤ العلائقي" بعبارة محمّد نور الدّين أفاية، يعود إلى التخلّف السّياسي ونظام الحكم الفرديّ ومطلق التصرّف والاستبداد الذي عرف به الشّرق. وهو ما يتطلّب إصلاح الدولة جهازا ومؤسّسات ونظام الحكم والإدارة خصوصا أنّ العقل الإصلاحيّ كان يعتقد أنّ "صلاح الأمّة معقود على صلاح السّلطان".

ولقد أدّى وعي التخلّف عندهم كما فصّل المؤلّف القول في ذلك إلى اعتماد المقارنة والقياس والاقتباس، إلّا أنّ ما تأسّس بناء عليها من محاولات للتحديث السّياسيّ لم يكن، على أهميّته، ليفتح الآفاق على الزّمن السّياسيّ الحديث لأسباب مختلفة، لعلّ أهمّها أنّ النّخب العربيّة الإسلاميّة كانت تنظّر لمحاكاة الأنموذج الأوروبيّ، وتعمل على استيراده دون انتباه إلى أنّ خصائصه المرجعيّة مسيحيّة رومانيّة خالصة. يضاف إلى ذلك أنّها كانت تخلط بين مراجع المعنى على ما بينها من اختلافات وما لكل منها من خصائص نوعيّة. وهو ما انعكس بوضوح على عمليات التّرجمة مثلا، فقد كانت تجري تحت وصاية الثّقافة التّقليديّة للعقل الإصلاحيّ فاعتراها من الضّعف والارتجال ما يكشف عمّا كان عليه العرب من التخلّف الحضاريّ الشّامل، كتعريب رفاعة رافع الطّهطاوي (1801_1873) وخير الدّين التّونسيّ (1820_1890) بعض الكلمات كما هي في الأصل الفرنسيّ مثل: journal وthéâtre وcollège و charte و constitution وdictateur...

وقد أبان المؤلّف أنّ التّجارب الإصلاحيّة والنّهضويّة كانت تجرى بإشراف قوى الهيمنة والاستعمار، ومن ذلك مثلا أنّ "الدّافع إلى الإعلان عن التّنظيمات في الجغرافيا السّياسيّة العثمانية كانت تقف وراءه قوى الهيمنة الأوروبيّة"، ومن ذلك أيضا أن تنصّ النّصوص صراحة على شرعيّة الوصاية والإلحاق والتدخّل ولا أدلّ على ذلك من وثيقة "عهد الأمان" (سبتمبر1857) "الذي كان أول نصّ شرّع بالقانون للتدخّل الأجنبيّ وضمن بالقانون أيضا سيطرة المال الرّأسماليّ على السّوق الوطنيّة"... ولا بدّ مع ذلك من ملاحظة أنّ دراسة هذه التجارب لم تقتصر على رصد المآخذ فحسب، بل لقد حسب المؤلّف لروّاد الإصلاح والنّهضة فتح الآفاق على تجارب الآخر ممّا كان له أثره بعدهم.

3- المحور الثّاني: الدّولة الهجينة والزّمن السّياسي الجديد: أسئلة التشكّل والاستمراريّة:

ينطلق المؤلّف في دراسته لأزمة الدولة في السّياق الثّقافيّ والتّاريخيّ العربيّ الحديث من استقراء العوامل والعلل التي جعلت من "دولة الاستقلال" أو "الدّولة القطريّة" أو "الدّولة الوطنيّة" دولة الأمر الواقع : لها شروطها القانونيّة الدّستوريّة (الجغرافيا، السّيادة، المؤسّسات...) ومؤسّساتها السّياديّة (الجيش والأمن والقضاء) والخدميّة (التّعليم، الصحّة، الإدارة عمومًا) والاقتصاديّة الإنتاجيّة، رغم كونها "دولة هجينة" في تكوينها، وقد "مثّلت عمليّات التّهجين المتضافرة استعصاء حرم هذه الدّولة من التمتّع بفضيلة الانتساب إلى الزّمن الحدث انتسابا فعليّا". فلماذا آل الأمر إليها ولم يؤل إلى دولة الخلافة أو الدّولة القوميّة مثلا رغم أنّ كلّا منهما كانت تمثّل نموذجا بديلا له معقوليّته وكان يمكن أن تكون إمكانا مختلفا وتجربة مختلفة؟ لماذا سادت هذه الدّولة مع أنّها نموذج دولتيّ يمثّل نشازا يقوم على "تركيب لا معقول أو متعسّف بين أنظمة قيميّة وتجارب تاريخية متناقضة" ؟ ولماذا استمرّت رغم فشلها في أن تكون ديمقراطيّة وليبراليّة وعلمانيّة؟

يؤكّد المؤلّف أنّ نعت هذه الدّولة بالـ "هجينة" هو "حدّ للتكوين وليس للتجربة" بمعنى أنّها هجينة في الأصل والنّشأة بمقتضى أسبقيّة وجود الدّولة على وجود الأمّة وإن أمكنها الاستمرار، وهنا تكمن المفارقة! وقد أتى على أهمّ السّياقات التّاريخيّة والدّوليّة التي نشأت فيها الدّولة القطريّة، وهي باختصار مرحلة ما بعد الحربين وبروز الغرب الأوروبيّ وأمريكا في هذه الفترة قوّة لها أثرها في العلاقات الدّوليّة، وبداية الاتّجاه نحو عالم من الهويّات الجديدة، والتشكّل المادّي والقانونيّ لـ"الدّولة الوطنيّة" بما تحمله من " أجهزة ونظام سلطة وتجمّع بشريّ على رقعة ترابيّة معترف بها ولها علاقاتها بالدّول القطريّة الأخرى"... أسهمت هذه الحيثيّات المختلفة في تكريس الدّولة القطريّة بهويّاتها المختلفة (التّونسيّة، الجزائريّة، المصريّة...) وبإيديولوجيّاتها التي تدافع عنها (القوميّة القطريّة، الأمّة القطريّة).

ولقد لاحظ المؤلّف أنّ ما بعد الزّمن الإمبراطوريّ شهد ظهور نصوص قانونيّة ومتون دستوريّة مهمّة في بعض الدّول العربيّة تبين عن تأسيس فلسفة جديدة في الحكم وإضفاء هويّة دستورية للدولة تقطع مع أطروحتي دولة الخلافة ودولة الوحدة العربيّة...

وقد اقتضى الانتماء الجغرافيّ والقدر التّاريخيّ أن تواجه هذه الدّول القطريّة مشكلات معقّدة تضاف إلى مشكلات نظام الحكم وسؤال المواطنة وحقوق الأقليّات والطّوائف ومطالبها الهوويّة، فقد جعل منها المجال الجغرافي الحيويّ (عبقريّة المكان) منطقة توتّر دائم وبيئة صراع دائر بين الدّول الكبرى ذات المصالح

والمشاريع والمخطّطات الاستعماريّة وإستراتيجيّات الهيمنة المختلفة (الهيمنة الأمريكيّة وأطروحة "ملء الفراغ")...

4- المحور الثّالث: أزمة الدّولة الهجينة وحدود البدائل:

يمكن القول إنّ سؤال الدّولة الممكنة عربيّا قد نشأ مع انهيار الإمبراطوريّة العثمانيّة الذي خلّف في المكوّنين العربيّ والتّركيّ آثارا مختلفة اختلاف قوميّتيهما إذ "إنّ مقدّمات انهيار الزّمن الإمبراطوريّ العثمانيّ تفيد بتولّد وضعين سياسيّين: دولة تركيّة بمقوّمين متساندين سوسيولوجيّ وقانونيّ من ناحية وفراغ كأنّه يترجم في جزء منه الشّعور بالفقد واليتم وضبابيّة المستقبل بالنّسبة إلى العرب من ناحية ثانية"...

وهكذا تبلور المشروع السّياسيّ التّركيّ على أساس الدّولة القوميّة كما يعبّر عنها بالدّولة الأمّة (Etat-nation) التي تقوم على محدّدات الجغرافيا والتّاريخ ووحدة الجنس والثّقافة ونوع القوانين والتّشريعات، بعد أن آلت الأمور إلى اتّجاه علمانيّ دعمته المؤسّسة العسكريّة ألغى مراكز الوقف والتّعليم الدّينيّ والتّقويم الهجري واستبدل الحرف العربي بالحرف اللّاتيني وعمل على نقل القوانين الأوروبيّة...

ورغم حدود التّجربة التّركيّة في العلمنة والتّحديث التي حكمها الارتجال والفوقيّة والنّقل عن الآخر فإنّها كرّست مجاوزة قائمة على القطيعة مع دولة الخلافة التي كان من آثار سقوطها وظهور النّزعة القوميّة التركيّة نشوء حركات الكفاح العربي من أجل الاستقلال عن الهيمنة العثمانيّة التركيّة... ولئن كانت الدّولة القوميّة "إمكانا تاريخيّا معقولا" و" كان يمكن أن تكون تلبية فعليّة لصوت التّاريخ السّياسيّ" وأن تكون بالاستتباع بديلا عن دولة الخلافة عند العرب فإنّ المؤلّف أبان بتفصيل حدود الخطاب القوميّ العربيّ في مجال الدّولة سواء من خلال النّصوص والأدبيّات التي ظلّت في حكم الإنشائيات التي تخاطب الوجدان من أجل التّأثير والاستمالة أو من خلال التّجارب التّاريخيّة التي تحسب على القوميّة العربيّة والقوميّين العرب والتي أدّت إلى الحروب الأهليّة والهزائم في مواجهة الاستعمار القديم الجديد (النّكسة في مصر واحتلال العراق...).

وهكذا آلت الأمور في الجغرافيا السّياسيّة العربيّة إلى الدّولة القطريّة، الدولة الهجينة التي "خاضت معركة التّاسيس والشّرعيّة" وتكرّست واستمرّت، بل و"راهنت على الاستحواذ على مرتكزات شرعيّة الدّولة القوميّة المتخيّلة وامتصاص تعلّق النّاس الوجدانيّ بها". وهي على ما تواجهه من إكراهات تبعيّتها للدّول الكبرى والأنظمة الأخرى وعلى ما تعانيه من ضعف مقارنة بغيرها من دول العالم وعلى ما يبدو عليها من عجز عن الانخراط الفاعل في الزّمن السّياسيّ الحديث وعلى ما يلاحظ عليها من أداء دون الانتظارات من خلال الهياكل الممثّلة لها (جامعة الدّول العربيّة مثلا) "صارت المنجز السّياسيّ والمؤسّسيّ الوحيد في الجغرافيا السّياسيّة العربيّة". وقد لا يكون البديل عنها إلّا مزيدا من التجزئة والتّقسيم والأمثلة على ذلك ماثلة اليوم في العراق (الطّائفيّة) وسوريا والسّودان وليبيا (الحروب والصّراعات الأهليّة)...

5- خاتمة:

إنّ هذا الكتاب القيّم يحمل من الطّرافة والإضافة للدراسات التّحليليّة والنّقديّة والتّأسيسيّة التي تشتغل بمباحث الدّولة مفهوميّا ومنهجيّا ومعرفيّا وبالتّجارب الإصلاحيّة والنّهضوية وقضاياها ما يجعل القارئ يعيد تمثّله لها ويراجع بعض مواقفه وثوابته بعد قراءته. فهو قد جمع بين طرافة المنهج والمقاربة واللّغة ما يحقّق الرّيادة والإفادة اللّتين راهن عليهما المؤلّف علي الصّالح مولى وقد أخذ على نفسه ألّا يكون عمله قراءة "استعراض وتكرار وتبسيط مدرسيّ وتطويع إيديولوجيّ".

لقد عمل المؤلّف على "النّفاذ إلى البنى العميقة لأنماط التّفكير في مطلب الدّولة وهويّتها" باعتماد خيارات منهجيّة ومعرفيّة دقيقة، رغم أنّ المسائل التي يشتغل عليها تبدو شائكة وخلافيّة تتأبّى عن الدّراسة دون أثر لمثول الذّاتيّ وشوائب الإيديولوجيا في التّعامل مع الموضوع، فالتزم الحياد والموضوعيّة كما تقتضيهما روح البحث العلميّ وتتطلّبهما صرامة المقاربة المعرفيّة. فهو يرصد لكلّ طرف ما له وما عليه دون تحيّز ملحوظ، معتمدا في كلّ ذلك على مصادر ونصوص مختلفة، بعضها غير معروف، على أهميّته في قراءة سياقه الثّقافي والتّاريخيّ، يحسب له اكتشافها وكشفها للقارئ.

وقد توصّل إلى نتائج وخلاصات قيّمة وأبدى ملاحظات ومواقف طريفة ووجيهة لا يمكن في هذا العرض المبسّط إيفاؤها حقّها من الإبراز والإجلاء، فلا غنى للباحث في هذه القضايا عن قراءة الكتاب فهو لا شكّ سيفتح له الآفاق وسيعة على تمثّلات مختلفة وتأمّلات جديدة في الفكر والواقع معا.